التصوف المغربي: المفهوم والمقاصد والخصائص

مولاي عبد الكريم الادريسي
باحث في سلك الدكتوراه جامعة ابن زهر، تخصص الدراسات الإسلامية
تحت إشراف الأستاذ أحمد فكير أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر
المغرب

مدخل

من المعلوم أن التصوف السني ثابت من الثوابت الدينية المغربية، وركيزة من ركائز التكوين الديني الذي ينشأ عليه المتعلمون، فقد كان التفقه في الدين ينطلق في أصوله من العقيدة الأشعرية، وفي فروعه من المذهب المالكي، ثم يتوج بأخذ ما لابد منه من أصول التصوف السني في طريقة الجنيد وأمثاله من العارفين بالله.

إن التصوف السني يعتبر من أهم سمات "وخصائص التدين المغربي، فهو منهج في السلوك، يميل إلى الالتزام بالجوانب العلمية والروحية، والمقاصد الأخلاقية، بعيدا عما كان سائدا في جهات أخرى من اعتداد بالتنظير الفلسفي، وانزياح إلى الفلسفات الصوفية المغالية، إنه تصوف منطبع بالتوجه السني المعتدل، اتسم عبر العصور التي مر بها في بلادنا باستهدافه لإصلاح السلوك اليومي للناس في صورته الأخلاقية والرقائقية"[1].

ولا يزال علماء المغرب يتواصلون بالاضطلاع بمبادئ التصوف، وتعلم قواعده، وتحصيلها من ينابيعها، والاستعانة بها على تربية القلب، وتزكية النفس، والاستفادة مما تحصل من العلم والفقه لإحسان السير إلى الله عز وجل، فبين الفقه والتصوف تلازم يجب حضوره في حياة المتعلم وسلوكه وسيرته، وإلا فشل في السير، وضل الطريق، وخرج من الوصول إلى الغاية، فالتصوف ثمرة التفقه وشقه العملي، والتفقه قوام التصوف وإمامه، فلا بد من الجمع بينهما والسير بهما معا وقد نقل عن الإمام مالك أنه قال: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق"[2].

وإنما تزندق الأول لأنه جاهل بأحكام الشرع وحكمه، فمثله كمثل القائل بالجبر الذي يقتضي نفي الحكمة والأحكام، وإنما تفسق الثاني لجهله بالمنهاج الموصل إلى طاعة الله، الحاجز عن معصيته، وإنما تحقق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين تمسكه بالحق [3].

وانطلاقا من هذا المدخل التمهيدي في معرفة أهمية التصوف في حياة الناس، وما يترتب عن ذلك من تزكية النفس وتهذيب المجتمع، نطرح الإشكال الآتي: ما المقصود بالتصوف المغربي؟ وما خصائصه؟ وللإجابة عن ذلك يقتضي الإجراء المنهجي تقسيم البحث إلى مبحثين اثنين:

المبحث الأول: بيان مدلول التصوف وحقيقته

لا يخفى على الناظر أن معنى التصوف وحقيقته نال اهتمام العلماء والمتصوفة وغيرهم من أهل الفكر والثقافة على مستوى التعريف والبيان؛ وذلك نظرا لأهمية هذا الفن في تهذيب السلوك، وترسيخ القيم الحميدة في المجتمع، لا سيما وأنه يتأسس على قاعدة "التخلية والتحلية" ومن ثم يقوم بعملية "الإفراغ والإملاء" أي إفراغ النفس من الرذائل، وإملاؤها بالفضائل، ويتكون هذا المبحث من مطلبين اثنين:

المطلب الأول: أصل اشتقاق التصوف

إن أصل اشتقاق كلمة التصوف كثرت فيه الأقوال والآراء من أهل العلم والتصوف، وكل أدلى بدلوه ورأيه في المسألة، حسب ما ترجح عنده من أقوال، وفي هذا الصدد يقول محمد بن أحمد ميارة الفاسي المالكي: "وفي تسمية التصوف تصوفا أقوال: قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى في قواعده: وقد كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف، ورأس ذلك بالحقيقة خمس:

أولها: من الصوفة؛ لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير لها.

الثاني: أنه من صوفة الفقهاء للينها، فالصوفي هين لين.

الثالث: أنه من الصفة؛ إذ جملته اتصاف بالمحامد، وترك الأوصاف المذمومة،

الرابع: أنه من الصفاء، وصح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا .... جهلا وظنوه مأخوذا من الصوف

وليست انحل هذا الاسم غير فتى ... صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

الخامس: أنه منقول من الصفة؛ لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الصوف، حيث قال تعالى: {يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَوٰةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجهَهُۥ}[4]. وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه والله أعلم"[5].

ونقل أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي مجموعة من أقول أهل التصوف في مسألة الاشتقاق قائلا: "قَالَت طَائِفَة إِنَّمَا سميت الصُّوفِيَّة صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها، وقَالَ بشر بن الحَارِث: الصُّوفِي من صفا قلبه لله، وَقَالَ بَعضهم: الصوفي من صفت لله مُعَامَلَته، فصفت لَهُ من الله عز وَجل كرامته، وَقَالَ قوم: إِنَّمَا سموا صوفية لأَنهم فِي الصَّفّ الأول بَين يَدي الله جلّ وَعز بارتفاع هممهم إِلَيهِ، وإقبالهم بقلوبهم عَلَيهِ، ووقوفهم بسرائرهم بَين يَدَيهِ، وَقَالَ قوم إِنَّمَا سموا صوفية لقرب أوصافهم من أَوصَاف أهل الصّفة الَّذين كَانُوا على عهد رَسُول الله صلى الله عَلَيهِ وَسلم، وَقَالَ قوم إِنَّمَا سموا صوفية للبسهم الصُّوف، وَأما من نسبهم إِلَى الصّفة وَالصُّوف فَإِنَّهُ عبر عَن ظَاهر أَحوَالهم"[6].

كما نقل ابن خلدون في مقدمته عن الإمام القشيري إشكالية الاشتقاق واستبعاده أن يكون مصدره اللغة العربية، فقال: "ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال اشتقاقه من الصفات أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف؛ لأنهم لم يختصوا بلبسه"[7].

ورجح ابن خلدون في مقدمته أن يكون أصل اشتقاقه من الصوف، قال: "قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه؛ لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"[8].

وخلاصة القول فإن مسألة الاشتقاق إما أن تكون من الصوفة يعني لبس الصوف، أو من الصفة بكسر الصاد أي الأوصاف، أو من الصفاء يعني صفاء القلب، أو من الصفة بضم الصاد أي أهل الصفة، والراجح والمختار عند أهل العلم أنها من الصفاء، لأنه به يعرف كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس[9]، ولا شك أن وظيفة التصوف تتمثل في تزكية النفس ومحاسبتها وتنقية القلب من الشوائب.

المطلب الثاني: معنى التصوف وحقيقته

إن المتتبع لحركة التصوف منذ ظهورها في القرون الأولى للإسلام، يلحظ بلا شك أن التصوف حقل من حقول المعرفة الإسلامية، له طرقه ومناهجه، ويتكون من شقين متلازمين وهما: العلم والعمل، يقول ابن عجيبة: "نسبته من العلوم هو كلي لها، وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل

إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى، فالإخلاص شرط في الجميع هذا باعتبار الصحة الشرعية، والجزاء والثواب، وأما باعتبار الوجود الخارجي فالعلوم توجد في الخارج بدون التصوف لكنها ناقصة، ولذلك قال السيوطي: نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان من النحو، يعني هو كمال فيها ومحسن لها"[10].

ومن ثم فإن أغلب العلماء اعتبروا التصوف علما من العلوم الإسلامية، يكتسب ويتلقى من شيوخ التربية، وفي هذا المعنى يقول الإمام الشعراني: "أول التصوف علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يعين على الطلب، والموهبة تبلغ غاية الأمل"[11].

وتحدث حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن التصوف باعتباره علما له وظيفته في حياة الإنسان، فقال: "علم التصوف هو: علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم، والأمور العارضة لهم في درجاتهم، بقدر الطاقة البشرية"[12].

بينما نجد أحمد ميارة الفاسي المالكي يربط علم التصوف بتربية النفس وتزكيتها من الصفات الذميمة، فقال: "التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس أي عيوبها، وصفاتها المذمومة، كالغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والأنفة والطمع والبخل، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، وهذا لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك الى تخلية القلب عن غير الله، وتحليته بذكر الله سبحانه"[13].

أما الحجوي الثعالبي فقد ربط علم التصوف بتوحيد الله عز وجل، ومداواة النفس من أمراضها بدوام ذكر الله تعالى، والتزام الورع في الشبهات، واغتنام الوقت فيما ينفع، فقال: "التصوف: هو العلم بتجريد القلب لله، وخلوه مما سواه، بمعنى تصفية النفس من رعوناتها، والقيام بالورع في الدين، وترك ما يريب إلى ما لا يريب، مع الإكثار من العبادات والذكر، وعدم الغفلة عن الله، وصون الوقت أن يذهب إلا فيما يفيد، ومحاسبة النفس على الأنفاس، ومدار المقصود منه التخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام"[14].

وعن دواعي نشوء هذا العلم في العالم الإسلامي قال ابن خلدون: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[15].

وبناء على هذه التعاريف يتبين أن التصوف هو تربية القلب، ومجاهدة النفس على العروج من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، وذلك بملازمة الطاعة، والبعد عن المعصية، حتى يصبح الله ورسوله أحب إلى النفس مما سواهما، ويصبح السالك في عبادته كأنه يرى الله تعالى من شدة حبه له، وقربه منه، وأنسه به، مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم في جوابه لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإحسان: ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[16].

فالتصوف إذن علم يعرف العبد ربه تعالى، وبحقوقه على عباده، ويعين المريد على سلوك الطريق الأرشد للقيام بهذه الحقوق، وحمل النفس على الالتزام بها، والتأدب مع الله جل وعلا، وحسن التعامل مع خلقه، وجميع مسائل هذا العلم ومباحثه مستمدة من القرآن والسنة والهامات الصالحين وفتوحات العارفين [17].

المبحث الثاني مقاصد التصوف وخصائصه

إذا ثبت أن للتصوف طرائقه ومناهجه العلمية والعملية، فإن المقاصد والخصائص ستترتب عنه من باب الأولى، تلكم المقاصد والخصائص التي تميزه عن غيره من العلوم والفنون، وهنا يقتضي الأمر الإجرائي أن نقسم هذا المبحث إلى مطلبين اثنين:

المطلب الأول: مقاصد التصوف

إن مقاصد التصوف وغاياته الكبرى هي التي تهدف بالأساس إلى ربط العبد بخالقه عز وجل عن طريق ملازمة ذكره جل وعلا، وترويض النفس ومحاسبتها من أجل الارتقاء بها في مدارج الكمالات البشرية، وصولا إلى تكوين مجتمع رباني تسود فيه القيم النبيلة والأخلاق الحميدة، ومن مقاصد التصوف:

أولا: معرفة الله تعالى وما يستلزم ذلك من الإقبال على طاعته، والاشتغال بعبادته، فقد سئل الإمام الجنيد عَنِ التوحيد فَقَالَ: "إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أَنَّهُ الوَاحِد الَّذِي {لَمْ يَلِد وَلَمْ يُولَد} [18]، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه، ولا تكييف، ولا تصوير، ولا تمثيل[19] {لَيسَ كَمِثلِهِۦ شَىءٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلبَصِيرُ}[20].

وفي بيان علاقة التصوف بالتوحيد يقول أبو سليمان الداراني: "ومادة التصوف سَوَاء أَكَانَت أَخلَاقًا أَو معرفة أَو سلوكا أَو تعبيرا عَن مُشَاهدَة أَو تصويرا لمناجاة أَو تذوقا لتجليات أَو تحليقا حول إشراقات فَهِيَ مَادَّة موصله بِاللَّه [...].

وَلِهَذَا آمن الصوفية بِأَنَّهُم أحباب الله وأصفياؤه وأولياؤه، وصفوة عبَادَه وحراس ينابيعه وآياته، كَمَا آمنُوا بِأَن أَعمَالهم وحركاتهم ومعارفهم وأذواقهم ومقاماتهم كلهَا هبات الله وفيض عطاياه، إِن مَولَاهُم سُبحَانَهُ هُوَ مربيهم ومعلمهم وهاديهم ومرشدهم، إِنَّه الحبيب القَرِيب المجيب الآخِذ بنواصيهم إِلَى وَجهه الكَرِيم"[21]. فمن مقاصد التصوف إذن توحيد الله تعالى وطاعته، والامتثال لأوامره، والاجتناب لنواهيه، والاشتغال بعبادته.

ثانيا: معرفة النفس، وما يستلزم ذلك من الإقبال عليها بالتصفية والتهذيب والتزكية، ذلك "أن قوام التصوف وأساسه المكين هو التربية الراشدة التي يتم بها تهذيب النفس وتزكيتها وتنقيتها من الشوائب، وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، ومفتاح ذلك كله الإخلاص.

والمراد به أن يتجرد المسلم في عمله وأمره كله عما سوى الله تعالى تجردا لا يبقى معه شيء من حظوظ النفس التي تنافي الإخلاص أو تنقص منه كالرياء والسمعة، وابتغاء ما سوى الله، فالإخلاص لله هو روح العمل، وعلى أساسه يقبل أو يرد، ويثاب صاحبه أو لا يثاب، والإخلاص الذي تكلم عنه علماء التصوف وأهل الحقيقة هو نفس الإخلاص الذي تكلم عنه علماء الشريعة معبرين عنه بالنية"[22] قال الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلنَا إِلَيكَ ٱلكِتَٰبَ بِالحَقِّ فَاعبُدِ ٱللَّهَ مُخلِصا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلهِ ٱلدِّينُ ٱلخَالِصُ} [23].

وعليه فإن معرفة النفس ومعالجة عيوبها من مقاصد التصوف الكبرى؛ إذ "لا شك أن عنوان التحقق بالتزكية القلبية هو الانتصار على النفس، ومجاهدة ما تميل إليه من الشهوات والأهواء من أجل إقامة العبادات على أصولها ومقاصدها، وتمثل الغايات من فرضها وتشريعها، وتحصيل الحياة الطيبة ببركاتها وأنوارها [...] ودون هذه الغاية الكبرى غايات أخرى يقصد من علم التصوف تحصيل التحقق بها"[24].

ثالثا: إصلاح المجتمع، إذا كان الدين في الأصل هو دعوة إلى الإصلاح بالمعنى الشامل، فإن التصوف يقوم بهذا المقصد العظيم؛ وخاصة أمام تراجع الاهتمام بالأخلاق والقيم الإسلامية لفائدة الفكر المادي [25]، ولذلك كان أهل التصوف يعملون على نشر الفضيلة والقيم في المجتمع عن طريق تربية المريدين والمحبين، وفي هذا السياق يقول أحمد ابن عجيبة: "فلا تسمع من الصوفية إلا قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا، كما قيل في حقيقة التصوُّف: أخلاقٌ كرام، ظهرت من قوم كرام، في زمن كريم"[26].

ونقل الخطيب البغدادي قول أَبِي بَكرٍ الشِّبلِيِّ فِيما يجب أن يكون عليه المتصوف من الأخلاق والقيم: "أَخبَرَنَا أَبُو طَالِبٍ يَحيَى بنُ عَلِيٍّ الدَّسكَرِيُّ، لَفظًا، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ بُندَارٍ، قَالَ: سُئِلَ الشِّبلِيُّ عَنِ التَّصَوُّفِ، فَقَالَ: " التَّصَوُّفُ عِندِي: تَروِيحُ القُلُوبِ بِمِروَاحِ الصَّفَاءِ، وَتَجلِيلُ الخَوَاطِرِ بِأَردِيَةِ الوَفَاءِ، وَالتَّخَلُّقُ بِالسَّخَاءِ، وَالبِشرُ فِي اللِّقَاءِ"[27].

وفي موضع آخر من كتابه يقول الخطيب البغدادي: "أَخبَرَنَا مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ الأَهوَازِيُّ، قَالَ: سَمِعتُ أَبَا حَاتِمٍ الطَّبَرِيَّ، يَقُولُ: سُئِلَ الجُنَيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ التَّصَوُّفِ؟ فَقَالَ: " استِعمَالُ كُلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ، وَتَركُ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ"[28].

فالمقصد الأساسي للتصوف هو الارتقاء بالمجتمع الإنساني أخلاقيا وسلوكيا حتى يكون فيه الانسان على مستوى المسؤولية المنوطة به باعتباره خليفة الله تعالى في كونه، لقوله تعالى: {وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلأَرضِ خَلِيفَةٗ} [29]. ومن هنا يقول أبو بَكرٍ الكَتَّانِيُّ: "التَّصَوُّفُ خُلُقٌ، فَمَن زَادَ عَلَيكَ فِي الخُلُقِ زَادَ عَلَيكَ فِي التَّصَوُّفِ.

فَإِنَّ حُسنَ الخُلُقِ وَتَزكِيَةَ النَّفسِ بِمَكَارِمِ الأَخلَاقِ يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ قَلبِ صَاحِبِهِ، وَكَرَمِ نَفسِهِ وَسَجِيَّتِهِ. وَفِي هَذَا الوَصفِ يَكُفُّ الأَذَى، وَيَحمِلُ الأَذَى وَيُوجِدُ الرَّاحَةَ، وَيُدِيرُ خَدَّهُ الأَيسَرَ لِمَن لَطَمَ الأَيمَنَ، وَيُعطِي رِدَاءَهُ لِمَن سَلَبَهُ قَمِيصَهُ، وَيَمشِي مِيلَينِ مَعَ مَن سَخَّرَهُ مِيلًا، وَهَذَا عَلَامَةُ انقِطَاعِهِ عَن حُظُوظِ نَفسِهِ وَأَغرَاضِهَا"[30].

وعليه فإن للتصوف مقاصد كبرى يعمل المسلم على تحصيلها وتحقيقها بالمجاهدة والرياضة وتهذيب النفس والسلوك، وهذا الأمر هو الذي جعل الإمام الغزالي يقول في حكم التصوف: "إنه فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام"[31].

المطلب الثاني: خصائص التصوف المغربي

إن المغرب يمتاز عن غيره من الدول الإسلامية بكون التصوف له وجود ملموس في كل أنحائه، وما بناء الزوايا المتعددة في المغرب إلا نتاج لهذه الحركة العريقة في الإسلام، وقد اقترن ظهور الزوايا بالمغرب بنشوء حركة التصوف، ولذلك تعتبر التجربة المغربية في التصوف فريدة من نوعها في العالم الإسلامي؛ نظرا لما تتميز به من خصائص ومقومات ذاتية جعلتها تواكب المجتمع المغربي عبر التاريخ وتؤطره في وقت الأزمات والملمات ومن هذه الخصائص:

أولا: خاصية الاعتدال والوسطية

إن هذه الخاصية لم نكن تفارق التصوف المغربي في أغلب الفترات التاريخية رغم وجود بعض الحالات النادرة من المبالغة في الفكر الصوفي خلال بعض الفترات، ومرد اعتدال تصوف المغاربة يكمن في استناد أصوله الأولى على الكتاب والسنة[32]، وهذه الخاصية يمكن ربطها بتلازم واقتران وصف رجاله الأوائل بصفة العلم؛ باعتبارهم جمعوا بين الفقه والتصوف، وزاوجوا بين الزهد والتربية والذكر طمعا في الوصول إلى معرفة الله تعالى، وفي ذلك قال أبو القاسم الجنيد "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا"[33].

ثم إن استمداد أصول التصوف الأولى عن الرعيل الأول المشرقي من الصوفيين السنيين أمثال أبي القاسم الجنيد بن محمد (ت 296هـ) وأبي طالب المكي (ت 386هـ) وأبي القاسم القشيري (ت 465هـ) أسهم في تحقيق سمة الاعتدال للتصوف المغربي الذي كانت له القدرة على التكيف مع واقع وبيئته حرصا على ترشيده في الممارسة قدر الإمكان[34].

ثانيا: الجمع بين التصوف والفقه

كان عمل أهل التصوف بالمغرب يقرن "بين الممارسة السلوكية الصوفية والفقه في إطار تكاملي لا يمكن الفصل بينهما فالفقه عندهم مفهوم شامل يشمل الأحكام التكليفية القلبية. فقد جمع العديد من العلماء بين الفقه والحديث والتصوف إيمانا منهم ولا شك بالمقولة الشائعة في أوساطهم: من تصوف ولم تفقه فقد تفسق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تزندق، ومن تصوف وتفقه فقد تحقق"[35].

فالزاوية الناصرية مثلا نجد العديد من العلماء والفقهاء الذين ينتمون إليها، ولم يجدوا في ذلك حرجا أو ضيقا، كالإمام اليوسي، وابنه محمد اليوسي، والإمام عبد الملك التاجموعتي، وسيدي حسين بن محمد الشرحبيلي[36].

"فالتصوف المغربي إذن إلى جانب الفقه المالكي كان له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلادنا فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره"[37]. كما أن العلماء المتصوفة بالمغرب قاموا بدور هام في تطوير مختلف العلوم الإسلامية وخاصة علوم القرآن الكريم والتفسير، ونستحضر في هذا الباب تفسير البحر المديد لابن عجيبة.

ثالثا: العمل في التصوف المغربي

لا شك أن التصوف المغربي "تصوف روحاني يغلب عليه الطابع العلمي ذو الصبغة الزهدية السلوكية الأخلاقية يبتعد عن كل نزعة فلسفية باطنية ويقترب من كل نزعة تعليمية للسنة النبوية لا أثر فيه للشطحات الصوفية"[38].

فالتصوف الحقيقي هو الذين يجمع أصحابه بين العمل والعبادة ويتصفون بالوسطية في كل شيء ويستعملون أسلوب الترغيب والترهيب والخوف الرجاء، فهذا هوا لتصوف الذي يمكن أن يرتضيه الناس ويتلقونه بالقبول.

كما أن هذه الصفة العلمية للتصوف المغربي تعكس حرص رجال التصوف المغاربة على العمل والكد وبذل الجهد لكسب الرزق دون تواكل أو اتكال وفي تواصل مع الناس معانقين همومهم وملامسين لكل مناحي الحياة [39].

وعليه فإن هذه السمة العملية المتمثلة في احتكاك أهل التصوف بالواقع المعيش، وانفتاحهم على الناس هي التي كانت سببا محوريا –كما يقول أحد الباحثين المتخصصين في دراسة الفكر الصوفي المغربي–وراء سيادة المذهب المالكي وتصوف الجنيد السني والكلام الأشعري التوفيقي وهو ما جعلهم بالتالي دعاة للوحدة ونبذ الخلاف والتمسك بالأصول والنفور من الفروع [40].

رابعا: الجمع بين المجاهدة والجهاد

ينفرد التصوف بالمغرب "بخاصية الفاعلية والبعد عن الخمول والبطالة فهو تصوف عملي وظيفي إن صح التعبير وتاريخ التصوف هو تاريخ جهاد ومجاهدة ومفهوم الجهاد عند الصوفية مرتبط بمفهوم المجاهدة"[41]. وفي هذا الصدد يقول الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن: "الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس"[42].

فقد كانت بداية تأسيس الزوايا مع دولة المرابطين يغلب عليها الجانب الجهادي والزهدي عبر انتشار الرباطات الجهادية، إلا أن هذه المرحلة امتزجت بين السياسة وبين الأفكار حول التصوف، ثم جاء الموحدون الذين شكلوا مؤشرات من أجل تأسيس مجتمع سليم ونقي، وفي هذه المرحلة أصبح التصوف قوة إجماعية مؤثرة، وحصل أقطابه وشيوخه على مصداقية روحية وأخلاقية، وقد أعطى التصوف أو الحركة الصوفية والصحوة الدينية لدى الناس في الحقبة المرينية نتائج هامة غطت النقص الاستراتيجي الذي كان يخيم على فئة من المجتمع.

وفي تاريخ المغرب الحديث عرفت الطريقة الجزولية مثلا بدورها الفعال في استنهاض الهمم وحشد الجموع في فترة عرف فيها المغرب نوعا من الضعف السياسي وتكالب القوى الاستعمارية الايبيرية ولقيت دعوة محمد بن سليمان الجزولي استجابة كبيرة لدى الأوساط الشعبية فقد اشتهر

بمقولته المعروفة في هذا السياق: "دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله القاتلين أعداء الله"[43]. وقد هبت العديد من الزوايا للدفاع عن جوزة الوطن ومواجهتها الاحتلال الإسباني والفرنسي لأراضيه.

خامسا: التواصل للتصوف المغربي

لا يخفى على الناظر في واقع التصوف المغربي أن البعد التواصلي الذي يتميز به جعله ينتشر داخل حدوده الجغرافية باديته وحاضرته عبر رموزه ورجالاته [44]. ومكن القبائل كذلك من التواصل والتلاحم فيما بينها عبر أعلامه وأتباعه ومريديه حتى قيل: لولا التصوف لما انصهرت مكونات المجتمع المغربي ليس انصهارا ثقافيا ولغويا فحسب بل عرقيا كذلك [45].

وإن من أبرز مظاهر هذا البعد التواصلي للتصوف المغربي هو انتشاره خارج حدوده الجغرافية حينما عجزت أو غابت باقي شروط التواصل الحضاري الأخرى وتقلبت العلاقات والروابط بين الدول حيث برز دور التصوف كعامل موحد خاصة بين شعوب أقطار إفريقيا كثقافة مشتركة تسمح بالإحساس بالتواصل وبوحدة الانتماء [46].

سادسا: الحس الاجتماعي في التصوف المغربي

إن الممارسة الصوفية بالمغرب تتميز "بكونها ممارسة جماعية سنية تنبني على خلق روح الجماعة الصالحة المندمجة في المجتمع فالتصوف في تاريخ المغرب في علاقته بالمجتمع تميز بالفاعلية والحركية وأخذ ذلك أشكالا متعددة خصوصا بأدواره المباشرة في التربية والتوجيه بتأسيس الربط والزوايا لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم والرغبة في تعميم التصوف وجعله تجربة جماعية تهتم بالشأن الأخلاقي للمجتمع ومن تم تجند شيوخ التصوف والمريدون للنشر والدعوة وإبراز مكانة التصوف من الدين إما عن طريق الرواية الشفوية ونقلهم للغير ما رأوه وعاينوه من أخلاق المشايخ وسلوكهم أو بالتأليف للتعريف بمشايخهم والحديث عن فضلهم وفضائلهم وعلومهم وكراماتهم"[47].

كما أن التصوف المغربي يمتاز بالحس الاجتماعي والبعد التضامني والتكافلي، حيث نجد الزوايا في مختلف مناطق المغرب تقوم بأدوار اجتماعية هامة، فكانت في بعض المحطات التاريخية عبارة عن مأوى للمحتاجين والفقراء والمعوزين، خاصة زمن المجاعة والحروب، فتوفر لهم الإطعام والحماية في آن واحد.

وهكذا تغلغلت الممارسة الصوفية في مختلف شرائح المجتمع المغربي في صورها المختلفة إن في الجانب العلمي العقدي بتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية أو بتدخلها في الجانب الاجتماعي التضامني بالإيواء والإطعام [48].

خاتمة

نخلص في هذا البحث إلى أن التصوف علم إسلامي مبني أساسا على المعرفة بالله تعالى وعبادته، وكذا المعرفة بالنفس البشرية وعيوبها ونواقصها، بغية ترويضها وتهذيبها بالأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل لتتدرج في مدارج الكمال الإنساني.

ولما كان لعلم التصوف موضوع ينطلق منه، فلا بد إذن أن يكون له قواعد وضوابط تحدد العمل فيه والسير في مباحثه بشكل سليم، كما أن لهذا العلم مقاصد وخصائص يهدف إلى تحقيقها في النفس والمجتمع معا ونخص هنا بالذكر التجربة المغربية في التصوف، وتتلخص هذه المقاصد والخصائص في الارتقاء بالإنسان في مدارج السالكين العارفين بالله عز وجل ونشر الفضيلة في المجتمع الإسلامي والإنساني على وجه العموم.

الهوامش:

(1) خطة ميثاق العلماء: التصوف السني اختيار ثابت وعلم سلوك أخلاقي، ذ حسن عزوزي اللقاء الثالث فبراير 2023 ص: 1.

(2) ايقاظ الهمم في شرح الحكم لأحمد بن عجيبة الحسني، تقديم ومراجعة محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، ص: 18.

(3) ينظر المصدر نفسه، ص: 18.

(4) الكهف الآية 28

(5) الدر الثمين والمورد المعين، أحمد ميارة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، ط 1999، ص: 512.

(6) التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد الكلاباذي، دار الكتب العلمية بيروت، ص: 21.

(7) مقدمة عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق حامد احمد طاهر، دار الفجر، ط 2 سنة 2010 ص: 577.

(8) نفسه ص 577.

(9) برنامج تأهيل أئمة المساجد في إطار خطة ميثاق العلماء اللقاء الثامن عشر السبت 16 أكتوبر 2010، مبادئ عامة في التصوف، ص:1.

(10) ايقاظ الهمم في شرح الحكم، أحمد ابن عجيبة، ص: 22.

(11) الطبقات الكبرى للشعراني مكتبة الكتبي مصر ط 1315، ج 1، ص: 119.

(12) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون دار الكتب العلمية ط 1941 ج 1 ص: 414.

(13) الدر الثمين والمورد المعين، ص: 513.

(14) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1 سنة 1995، ج 2، ص: 55.

(15) مقدمة ابن خلدون، ص: 576-577.

(16) صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، رقم ح 50، ط 1 ج 1، ص: 19.

(17) ينظر: برنامج تأهيل أئمة المساجد في إطار خطة ميثاق العلماء اللقاء السابع السبت 7 أبريل 2012 مبادئ عامة في التصوف، ص: 1.

(18) سورة الإخلاص الآية 3.

(19) الرسالة القشيرية عبد الكريم القشيري، تحقيق د عبد الحليم محمود، دار المعارف القاهرة، ج 1، ص: 21.

(20) الشورى الآية، 9.

(21) التعرف لمذهب التصوف أبو بكر الكلاباذي، دار الكتب العلمية بيروت، ص: 3.

(22) برنامج تأهيل أئمة المساجد في إطار خطة ميثاق العلماء، اللقاء السابع السبت 7 أبريل 2012، ص: 3.

(23) سورة الزمر الآية 3.

(24) التصوف السني: اختيار ثابت وعلم سلوك أخلاقي، د حسن عزوزي، خطة ميثاق العلماء، 2023م، ص: 4.

(25) حول التصوف والمجتمع، لحسن السباعي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط 1 سنة 2007، ص: 101.

(26) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة، ط 1419، القاهرة، ج 7، ص: 292.

(27) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي، تحقيق د. عامر حسن صبري، دار البشائر الاسلامية بيروت، ط 1 سنة 2000، ص: 66.

(28) نفسه ص: 77.

(29) سورة البقرة لآية 30.

(30) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم، دار الكتاب العربي بيروت ط 3، سنة 1996، ج 1، ص: 463.

(31) ايقاظ الهمم في شرح الحكم، ص: 21.

(32) مؤسسة الزاوية الأصل والوظيفة، لطيفة شراس، ط 1، سنة 2021، ص: 69.

(33) التصوف الاسلامي في المغرب، علال الفاسي، اعداد عبد الرحمن بن العربي الحريشي، مطبعة الرسالة الرباط، ص: 12.

(34) التصوف السني في تاريخ المغرب نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، مجموعة من المؤلفين، تقديم وإشراف إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن 2010، ص: 93.

(35) مؤسسة الزاوية الأصل والوظيفة، لطيفة شراس، ص: 71.

(36) أبواب التصوف، فاطمة الروشدي، ط1 سنة 2009 دار الحرف القنطرة المغرب، ص: 100.

(37) من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب ضمن الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، عبد المجيد الصغير، ص: 273.

(38) مؤسسة الزاوية الأصل والوظيفة، لطيفة شراس، ص: 70.

(39) حول التصوف والمجتمع، الحسن السباعي الادريسي، ص: 11.

(40) من اجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب ضمن الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب عبد المجيد الصغير، ص: 273.

(41) مؤسسة الزاوية الأصل والوظيفة، لطيفة شراس، ص: 72.

(42) المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم دمشق بيروت، ط 1، ص: 208.

(43) ممتع الاسماع، محمد المهدي الفاسي، ص: 319.

(44)"علاقة الزاوية الرحمانية التادلية بالزاوية الفاسية صور من تواصل تصوف البوادي بتصوف الحواضر، لطيفة شراس، " ضمن كتاب جماعي "التصوف المغربي مصدر اشعاع وتواصل" منشورات جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقنيطرة 2015، ط 1، ص: 373-384.

(45) مجموعة من المؤلفين التصوف السني في تاريخ المغرب، ص: 91.

(46)"مقومات الوحدة والتضامن في الطرق الصوفية تجربة الطريقة القادرية والتيجانية في غرب افريقيا نموذجا" قاسم جاخاتي، مجلة المغرب الافريقي ع 7 سنة 2007م.

(47)"مؤسسة الزاوية المغربية الأصل والوظيفة، لطيفة شراس، ص: 75.

(48) نفسه